- الضميـر -

هل الضمير هو تلك الحقائق البديهية المنقوشة على مرايا جواهر نفوسنا الناطقة منذ بـدء التكويـن، والتي طمست أنـوارها برديء أفكارنـا وأعمالنـا فظننـا أنها في حكم اللاموجـود. تمامـا كمـا باطـن الأرض النـاري طمس عليـه بالمـاء والتراب فظـن الجهـلاء أن كوكب الأرض كلـه مـاء وتـراب. حتـى ينفجـر بركان ما في مكان ما فيسيل النـار أنهـارا تحرق الحجر والمدر. عندها يتذكرون أن باطن الأرض مراجل من نار. كذلك نحن نعيش في بـرد غفلتنا وفـي وهم إستكانتنا إلـى الأفعـال المخالفة حتى ينفجر فجـأة بركان الضمير مـن أعماق نفوسنا ليرمي أمامنا بنار الحقائق التي تشوي الوجـوه.

هـل الضمير هـو تلك البوصلة التي اختزنت سرّ الألوهة فينا والتي هي أكثر شفافية مـن علم المنطق الذي يعتمد الاستقـراء والقيـاس والإستنتـاج. وأكثر رهافـة مـن كل العلوم العقلية التـي تقـدم لنا الحقائـق ببراهين الملاحظة والتجربـة والتعليـل والتفسير والمقارنـة. وكأن الضمير حدسا ينطـلق مـن الكليـات المجـردة باتجـاه الجزئيـات المحسوسة. حتـى لنظن بأنـه رسالة السماء إلينا شفقة منها علينا أن نسقط في هاوية المخالفات ووحـول المستنقعات. رغم عدم استحقاقنا بواقـع مسلكيتنا لهـذه الرسائـل التـي تهدينا السراط المستقيم.

قـال الحكيم الصيني كونفوشيوس: الضمير هـو نـور العقـل لتمييز الخير من الشرّ. ونحن إذا عدنـا إلى تعريف أفلاطون للنفس بأنها جوهـر روحاني حـيّ شفاف خالـد يقبل العقـل كما يقبـل الجهـل. وربطنا هذا التعريف بمـا قالـه كونفوشيوس. خرجنـا بنتيجة مفادهـا أن للنفس وجهيـن، واحـد عقلانـي نورانـي يعتمد القانـون السببـي والإستقراء المنطقـي والإلهـام الإبداعي. وآخر ظلماني ضدّي يعتمد إغراء الشهوات والإنجـذاب إلـى الشبهات متخذا لها طـرق الكذب والتدنيس والطمع والجشع بغيـة الوصول والتواصل.وبعضهم شبّـه النفس بساحـة معركـة تتصارع فيها طبائع العقل من نـور وخيـر وعـدل وتواضع ومحبة مع طبائع الإبليس من ظلمة وشرّ واستبداد

واستكبـــار وعدوانيــة، فـإذا انتصرت طبائــع العقـل قـوي النـور وضعف الظلام، قوي الخير وضعف الشــرّ، قـوي العـدل وضعف الإستبداد، قويت المحبة وضعفت العدوانية. وبالعكس إذا انتصرت طبائــع الإبليس.

ونحن نقـول أن قوى النــور والعـدل والحــق والخيــر والجمــال إذا كانت متيقظــة باستمرار، مهيمنة علـى سلوكيات الإنسان وأفكاره ونوايـاه سمينا ذلك عقلا وقلنا هذا إنسان عقلانـــي فهم الغايــة التي وجـد من أجلها وفهم القوانين الأزلية المنقوشة على جوهــر نفسه منذ بــدء التكوين كقانون الحركة جوهــر هذا الوجـود. وقانون التطور والإرتقاء ناموس الكائنات الحيــة وقانـون المعرفة هـي السعادة القصوى التي تطلب لذاتها ولا تطلب لغيـرها.

جــاء في تضاعيف جمهورية أفلاطون أن مــن واجب الإنسان الحكيم أن يسعى إلــى تحقيق كماله الإنسانـــي. وذلك بمعرفته لنفسه ومعرفتــه لربّــه، وهذا السعي هـو سفر دائم إلــى الله لا تنقطع حركته إلا في النفوس الميتة. وهذا السفر لا يبغي وصولا لأن الله مطلق منـزه كلي مجرد بينما عقل الإنسان لا يستطيع أن يمارس علمه وعمله إلا عبــر حــواس الجسد وجوارحه الماديــة المربوطــة بعالــم الجزئيــات والمركبــات المحسوسة، فكيف يصل الجزئي المحسوس إلى من يتصف بالتنزيه والتجريد. ولكن الوصول شيء والتواصل شيء آخـر، نحن بضمائرنا وبصائرنا نتواصل مع الله ولا نصل إليه، بل نبقــى في شوق دائم للسفر على ظهر بـراق المحبة التي هـي الطهارة الحقيقية لضمائرنا وعقولنا.

وإذا كان حافـز العمل عند أكثــر الناس هـو الربح إما في الدنيا مالا وجاها، وإما في الآخــرة جنــة ونعيما. فصاحب الضمير يفعـل الشيء لأنه محق عادل دون أن يفكر بربح أو خسارة.

قــال إبراهيم المازنـي:

قــد أفعل الشيء لا أبغــي بــه أمــلا ولا أبالــي الورى ماذا يقولــونــا
همــي ضميري فــإن أرضيته فعلــى رأي العبــاد ســلام المستخفينـــا

أمــا المتصوف الجنيـد فقــال: الضميـر الحــيّ يجعلك تشعــر بنعيم الراحــة وسعادة الطمأنينة وإن كنت نائما علــى الشوك.

أمــا الشاعر الفرنسي راسين فقـال: قد يشعر المرء بوخز الضمير وهو متمتع بكامل صحته. وبعضهم قــال أن معنــى أن الله خلق الإنسان على صورته أنه أودع فيه من نـوره الشعشعاني وهــو الضمير. وهذا المعنــى هـو نفسه ما قالـه الشاعر الإنكليزي شكسبير: الضمير الحــيّ هــو عيــن الله على الإنسان الكائن العاقـل. أمـا المتصوف الشبلي فقــال: لا تخشى رأي الآخريــن فيك بل إخش حكم الضمير. أما إبن باجه فقد قــال: لا سعادة تعادل راحة الضمير لأن راحته هي الطمأنينة التي عناها الله سبحانه وتعالــى فــي كتابــه الكريم عندما خاطب النفس المؤمنة قائــلا: أيتها النفس المطمئنة إرجعي إلــى ربّك راضية مرضية. فكأن الطمأنينة هي أكبر هبة يمكن أن تعطى من الله للنفس البشريــة. أما الأمير التنوخي فقال: أربعة أشياء تخدّر الضمير وتكاد تميته المال والسلطة والشهوة والمعاندة. وقال بعضهم: إن من أهم البراهين على وجود الله أن الشرير قـد ينجو مـن عقاب القوانيـن ولكنه لا ينجــو أبدا من عقاب ضميره وهذا يدل على أن الحياة ليست عبثية وأن الإنسان لم يوجــد سدى.

كمال يوسف سري الدين